

الذكاء ومقاييسه

الفصل الأول

المقدمة

« إذا أصبحت النبطة بالحياة ، والمهارة في العمل ، التفكير الواضح والسلوك النبيل ، كان الفوز نصيب الإنسان على الدوام ، ذلك لأن التنشئة السليمة تحمل في حياتنا مكانا أعظم من المكان الذي يحتله الذكاء » .

أ . ب . هربرت في كتابه « الإنجليزى »

A. P. Herber : The Englishman .

كثيرا ما يلاحظ أن الذكاء في إنجلترا عرضة للشك وللازدراء ، في حين أنه في فرنسا ، موضوع إعجاب وتقدير . ويظهر هذا التقدير عند الفرنسيين من شفقتهم بالمناقشات ومن إصرارهم على وجوب الدقة والوضوح في التعبير ، ومن تأثرهم الشديد إذا وصفناهم بالغباء والسخف ، في حين أن رأينا نحن الإنجليز - الذى هو على النقيض من هذا - يظهر في تفضيلنا الخلق والسلوك ، والقاب الطاهر على التفكير الواضح ، وفي اهتمامنا بما هو نافع ، وبما هو متفق مع الأخلاق ، وفي قلة استخدامنا لكلمة « ماهر وذكى وعبقري » ومن الواضح أننا لا نقدر الذكاء في ذاته ، فنحن نعتبر التفكير المجرد انحرافا عن النشاط العملى ، وأنه مصدر خطر على عقائدنا التى نتمسك بها . ويقول « مادارياجا » ^(١) وهو من الذين يعرفون الشعب الإنجليزى حق المعرفة « ان الرجل الانجليزى لا يثق بالتفكير » ^(٢)

Madariaga (١)

Englishmen, Frenchmen, Spaniards. (٢)

ولا يتضح تفضيلنا العمل على التفكير ، قدرما يتضح في الخطب العامة التي يلقها البارزون من مواطنينا . ومنذ وقت قصير ذكر أحد مديري البنوك الخاصة محرر جريدة التيمس ^(١) أن « السادة الأقدمين الذين كانوا يشيرون إعجاب الناس » والذين كانوا يرأسون البنوك الخاصة يرجعون الفضل في نجاحهم إلى « أخلاقهم الفاضلة » وإلى أنهم « نشأوا من أسر طيبة » وإلى أنهم كانوا يدبرون أعمالهم « بأكثر ما يمكن من الألفة والكبرياء » . وهو يرى أن عدم تدريب هؤلاء الرجال تدريباً خاصاً « قد ساعدهم أكثر مما وقف في سبيلهم كما ساعدتهم على ذلك ضالة معرفتهم بالناحية الفنية من عملهم » .

ومنذ ثلاث سنوات دعى أيضاً عدد كبير من رجال الأعمال البارزين لكي يعبروا عن آرائهم بصدد الصفات التي تؤدي إلى النجاح في التجارة . وقد مال الجميع ماعدا واحداً أو اثنين إلى التقليل من شأن التدريب الخاص ، وأشاروا إشارة عابرة إلى حاجة المشتغلين بالتجارة إلى شيء من الذكاء أو القدرة ، ولكنهم أبرزوا أهمية الصفات الخلقية التي مجدها صامويل سميتر . ومع أن هذه الآراء قد وصفت بأنها « لا تكاد تتضح أكثر من وضوح الملاحظات التي يبدونها المعمرون عندما يدعون لبيان السرف في طول أعمارهم » ^(٢) . إلا أنها ، على الأقل ، تعكس اتجاه الانجليز نحو وضع العمل والخلق في مرتبة أعظم من المرتبة التي يوضع فيها الذكاء ويعتقد مستر ف . ل . لوكاس ^(٣) أن طبيعة الانجليز التي تدعوهم إلى الاعتماد على الغريزة تظهر بوضوح من وجهة نظرهم إلى التعليم والتربية على اختلاف أنواعهما . وهو يقول « إننا لا نزال نفضل لشبابنا ميادين اللعب

The Times, December 24 th, 1932. (١)

Macrae, Talents and Temperaments ,p. 148. (٢)

Mr. F.L.Lucas (٣)

أكثر مما نفضل لهم معامل «ايتون» ونفضل لجيشنا ثكنات «شلسي» أكثر مما نفضل له الطائرات والدبابات»^(١). ومن المؤكد أن أقوال نظار مدارسنا، وخاصة في أيام الاحتفال بنهاية الدراسة والأيام المشابهة لها، تؤيد وجهة نظره. ففي هذه الخطب نجد أن قيمة العقل تقل إلى أقصى حد ممكن ويصبح للأخلاق وللعمل الذي يظن أنه يؤدي إلى اكتسابها الأهمية الأولى. وتظهر رغبتنا المانحة أيضاً في تفضيل اخلاق على الفكر، عندما نكرم شخصاً أو نؤبن ميتاً فالتنا نذكر ما كان عليه من ذكاء وما قام به من أعمال، ولا نكننا نطنب في لاشادة بطيبته، وحببه للناس، وتواضعه، وكرمه الذي لا ينقطع، ووداؤزته لأصدقائه.

ومع هذا فهناك من العلامات ما يدل على أن انتقاصنا للذكاء آخذ في القلة. فقبل تقدم العلم الحديث كانت مشكلة الذكاء تبدو كأنها إلى حد ما مسألة أكل عليها الدهر وشرب. وكان بعض الناس يتساءلون في قلق عما إذا كانت حياة الأفراد والجماعات سوف تتأثر إذا ما اعتمدت اعتماداً كبيراً على التفكير المقيد الموجه إلى هدف ما أم لا. ومما لا شك فيه أننا حتى الآن لم نصل إلى حد اعتبار الذكاء شيئاً له قيمته الذاتية. ولم يزدهر بيننا ذلك الحماس الصريح الذي هو من خصائص الفرنسيين، وإنما يسيطر علينا اتجاه يدعو إلى عدم الثقة بالعقل، إلا أننا مع هذا قد أخذنا في إدراك أنه وسيلة للقيام بالأعمال المطلوبة، أي أنه وسيلة ضرورية مفيدة لتحقيق أغراضنا العملية.

ويذكر رجال الاقتصاد النتائج التي يمكن أن تتحقق نتيجة «السيطرة القائمة على التروى واليقظة». وحتى في مجال الأعمال الحرة نجد عدداً قليلاً من الرجال، وإن كان آخذاً في الازدياد، يعتمد أن الصناعة عمل يقوم على التفكير

ولا يمكن فصلها عنه ، وأنها تستلزم تفكيراً إنشائياً دقيقاً . وهؤلاء الرجال لا يقدحون في الجرأة أو النشاط أو الميضة ، إذ أنهم يعرفون تمام المعرفة أن هذه الصفات الخلقية وغيرها تحتفظ بقيمتها العظيمة التي لا جدال فيها . ولكنهم يشيرون إلى أن الجرأة والشجاعة لا ينجحان بمفردهما قدر نجاحهما عندما توجههما البصيرة النافذة الهادئة . أما فيما يتعلق بالضمير فانهم يرون أن الضمير الحى الفعال يحتاج إلى ما ينبر له الطريق . وهم يرون أيضاً أن قراصنة البحار الأقدمين « أرباب الخدق والمهارة » الذين يعتمدون على ما لهم من سيطرة وشخصية جذابة وإدراك ساذج إنما هم موضوع سخريه في الغالب . ويدركون أن رجل الأعمال الناجح في عصرنا هذا ليس هو الرجل المسيطر على غيره ، أو الشخص الجذاب ، بل إنه الرجل الذي ينبغي أن يعمل جاداً على حل مشاكله ، والذي ينبغي أن يكون من ذوى القدرة المتعربين على ممارسة أعمالهم .

ومن الممكن أيضاً أن نلاحظ نفس الاتجاه - أى ازدياد تقدير الذكاء - في كثير من نواحي الحياة . ففي التربية الحديثة مثلاً - نجد أن وصف الطفل بالغرور أو « الإعجاب بالذات » لا ينطبق بالضرورة على الطفل الذى يتفوق على غيره من الوجهة العقلية ، وقد ينال هذا الطفل فى بعض الأحيان استحساناً معتدلاً يقر به من الطفل الذى يتفوق على غيره فى الألعاب الرياضية . ويشعر المدرسون شعوراً متزايداً بأن من الواجب عليهم أيضاً إظهار قدرات تلاميذهم وتحريرها وتنميتها ، رغم أنهم لا يزالون متقنين على عدم إهمال التربية الخلقية .

ولهذه الأسباب ولغيرها اهتم أصحاب الأعمال والمديرون والمدرسون بالذكاء وقياسه أكثر من ذي قبل . ثم أننا إذا نظرنا من ناحية الانتشار الذى حازته اختبارات الذكاء الحديثة ، فالتنا نجد أن عدداً قليلاً من الناس هم الذين لا يلقون بالا إلى

الموضوع ، حتى بين الذين لا تهمهم هذه الاختبارات اهتماماً خاصاً ، أو اهتماماً ينشأ بحكم عملهم . ويظهر الآباء بوجه خاص اهتماماً كبيراً بطبيعة القدرة العقلية وقياسها ، نظراً لأنهم عرفوا تمام المعرفة ما للقدرة العقلية من أهمية توازي أهمية الأخلاق الكريمة والنوايا الحسنة بالنسبة لأطفالهم كما هو الحال بالنسبة لغيرهم من بنى الإنسان .

وسوف نعالج في الجزء الأخير من هذا الكتاب موضوع اختبارات الذكاء ، فنبحث في كيفية وضعها وتحقيقها ، والأغراض التي استخدمت فيها بنجاح ، ولكننا سنعالج أولاً طبيعة الذكاء نفسه ، وهو موضوع تباينت فيه الآراء ، وقد يبدو من الغريب أنه من الممكن قياس شيء قد يختلف الناس في تعريف طبيعته الأساسية ولو قياساً تقريبياً ، ولكن ليس في هذا تنقض حقيقي ، كما أنه لا يوجد تناقض بين قدرة الكهر بائين على قياس قوة التيار الكهر بائى في حين أنهم لا يستطيعون تعريف الكهر باء . جقاً إن بعض علماء النفس يذهبون إلى أن تعريف بعض المعانى الكمية - كالذكاء - وتحليلها لا يدخل في نطاق علم النفس ، الذى يقتصر على وصف الظواهر العقلية وقياسها واكتشاف ما بينها من تنابع أو ارتباط دائم . لا أننا لا نوافق على وجهة النظر هذه ، فقد تكون معرفة طبيعة الذكاء معرفة كلية ، غير ضرورية للأغراض العملية من قياس الذكاء ، ولا شك أن «ترمان» على حق عندما يقول : « ليس من المعقول أن تتطلب من الشخص الذى يقيس الذكاء أن يعرفه تعريفاً كاملاً »^(١) ، ولكن العلم لم يوجد ليخدم الأغراض العملية فحسب . وأن دراسة طبيعة الذكاء جزء هام من علم النفس كما أن دراسة ماهية الكهر باء جزء هام من علم الطبيعة برغم ما قد تكون عليه من

قيمة عملية ضئيلة للمهندسين .

ولكن قبل أن نعرض ما عرفه علماء النفس عن الذكاء وقياسه، يجدر بنا أن نذكر ملاحظة أساسية أخرى وهي : أن قراء الكتاب يلاحظون أن الذكاء ، لسوء الحظ ، من الموضوعات التي ينظر إليها الناس بشيء من الخوف ، وبشيء من التعصب الذي ينشأ عن هذا الخوف ، بل أن هؤلاء الذين يملكون من قيمة العقل يرغبون في أن يكونوا أذكى مما هم عليه في الحقيقة ، أو يرغبون على الأقل في أن يعتقد الناس أنهم أذكى مما هم عليه في الحقيقة . وهؤلاء لا يسمون بإمكان تعريف الذكاء ، ولا يسمون بأن قدرتهم العقلية يمكن قياسها ومقارنتها بقدرة غيرهم . ولهذا يميلون إلى جعل الذكاء من الأشياء التي يحرم علينا البحث فيها ، وإلى مقاومة دراسته دراسة منظمة ، وإلى معارضة الوسائل التي يمكن أن يقاس بها ذكاء الفرد . وهم يحاولون أن يحافظوا على سعادتهم بالتشكيك فيما يعتقدون أنه يؤدي إلى نسفها نسفا .

والأمر كذلك بالنسبة للخلق . فنحن نجد بصدد هذه المسألة مقاومة عنيفة لأي نظرية قد يبدو أنها تقلل من الطبيعة الإنسانية ، فيبدو أن الناس يرون أن عليهم أن يحتفظوا بتقديرهم لأنفسهم بأي ثمن ، فمثلا لو اخترع شخص ما جهازا لا يخطئ ، يكشف عن الغرور والصفات الأخرى غير المرغوب فيها ، فمن المرجح أنه سوف يكون ضحية السخرية ثم الإهانة الشديدة ، وستقوم ضده ولا شك محاولات عنيفة لمنع من استخدام جهازه .

وهذا الكتاب يعالج الذكاء بشكل عام . ولسنا الآن بصدد التعصب الذي قد تثيره عادة النظريات الصريحة المتعلقة بالخلق . وما نحتاجه هنا فيما يتعلق بالعقل هو تفكير متسع الأفق ، ومن المحتمل أننا حين نبدي هذه الملاحظة في هذا الفصل ، إنما نبشر برأي جديد .